د. عاطف أبو سيف (*)

إسرائيل، العالم والعدوان على غزة

شنت إسرائيل عدوانها على قطاع غزة في تموز ٢٠١٤ والذي استمر واحدا وخمسين يوماً وسط مواقف دولية أقل حدة وانتقاداً من تلك التي واجهتها في المرات السابقة حين تحركت دباباتها وأغارت طائراتها وبوارجها على القطاع عامي ٢٠١٢ و٢٠٠٨. بل إنه يمكن ومن خلال مراجعة سريعة للمواقف الدولية أن نستنتج أن المناخ الدولي كان محفزاً لاستمرار إسرائيل في عدوانها. وباستثناءات قليلة فإن المواقف الدولية كانت محايدة وهي بهذا المعنى صامتة عن إدانة العدوان، لكنها اتسمت بإشاراتها القوية للهجمات الصاروخية الفلسطينية مقابل الهجمات الإسرائيلية في مساواة غير مستوجبة ولا محقة بين الاحتلال وحق الشعوب في الدفاع عن النفس. بل إن عبارة الحق في الدفاع عن النفس كانت تلصق عند الإشارة لإسرائيل وليس للفلسطينيين. كما لم تتم الإشارة إلى حقيقة كون إسرائيل دولة محتلة للأراضي الفلسطينية إلا في مرات قليلة.

تسعى هذه الورقة للوقوف على مواقف الدول المختلفة مع تركيز على الدول الكبرى وذات العلاقة بالمنطقة لفهم كنه هذه المواقف وطبيعتها وأسبابها للاستدلال على التحولات الأعمق التي تجري تحت نهر المواقف الظاهرة، لأن من شأن هذا أن يدلنا على وضع علاقات إسرائيل الدولية، كما على مواقف الدول من الصراع العربي الإسرائيلي.

لم يكن العدوان وحده هو من قرر شكل المواقف الدولية منه، بل إن ثمة مجموعة من السياقات الإقليمية والدولية تركت أثراً كبيراً على مواقف الدول الكبرى مما يجري على الأرض. تتمثل أبرز هذه السياقات بالتالي:

(*) أستاذ جامعي- غزة.

١. حالة الإقليم في الشرق الأوسط، وخاصة الصراع العام ضد الإسلام السياسي بتنظيمه الأكبر «الإخوان المسلمين» خاصة في مصر. لم يقتصر الصراع على مصر بل إن حالة اللاستقرار التي ميزت المنطقة العربية بعد اندلاع الربيع العربي تركت أثرها على مستويين، الأول على العلاقات البينية العربية العربية والمحور القطري مقابل المحور السعودي المصري، وهو ما خلق مستوى ثانيا من التفاعل على المستوى الدولي من حيث الاصطفاف والتأييد. انعكس هذا بدوره على الموقف من الحرب بوصفه الموقف من حماس.

٢. يرتبط بالسابق أن إسرائيل قدمت العدوان بوصفه حرباً على حماس وليس على غزة، وبالتالي تم التمييز في الخطاب الدولي بين حماس- بوصفها جماعة إرهابية تطلق الصواريخ على إسرائيل، وبالتالي من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها- وبين غزة، حيث يجب أن تلتف إسرائيل إلى المدنيين ولا توقع ضحايا بينهم. وهو تمييز مضلل على أي حال، هدفت إسرائيل من ورائه إلى ربط الحرب على غزة بالحرب الكونية على الإرهاب.

٣. استخدمت إسرائيل بشكل كبير «الهاسبارة» في مواجهة الرواية الفلسطينية حول الحرب. تم تقديم الصراع بوصفه صراعاً بين قوتين تتبادلان الرشقات الصاروخية. حيث ركز الخطاب الإعلامي الإسرائيلي بشكل كبير على قضية تعرض البلدات والمدن الإسرائيلية خاصة تل أبيب للرشقات الصاروخية. كما استعانت الدولة بالجامعات من أجل تنشيط ما عرف بـ «غرف الحرب» التي أقيمت في الجامعات، حيث تم توفير الكمبيوترات للطلاب من أجل الدفاع عن إسرائيل على الانترنت ومتابعة أنشطة الإعلام الجديد وتقديم الرواية الإسرائيلية.

٤. يبدو أن صعود «داعش» والقلق الدولي من تنامي قدراتها والمساحات التي تستولي عليها ترك أثراً على تعاطف بعض العواصم مع عدوان إسرائيل. قررت إسرائيل شن العدوان في الوقت الذي بات فيه ثمة إجماع أممي على خطر «داعش» والسلفية الجهادية. بل إن نتنياهو لم يدخر مناسبة في عقد مقارنات بين داعش والمجموعات الفلسطينية.

٥. من الواضح أن الأزمة الأوكرانية تركت أثراً على مواقف أقطاب القارة من موسكو وانتهاءً بلندن. يعود جزء من عدم المبالاة الأوروبية إلى الانشغال الأوروبي بالأزمة الأوكرانية في الجوار، حيث أن ثمة جهودا كبيرة تضعها أوروبا في مواجهة تلك الأزمة وأن أي تركيز على الوضع في غزة قد يفقدها صراع الهيمنة مع روسيا على أهم درة في تاج الاتحاد السابق. والأمر ذاته بالنسبة لموسكو التي استخدم موقفها من أزمة أوكرانيا في صياغة موقفها من أزمة غزة.

٦. ثمة رغبات دولية واضحة في استثمار أجواء الحرب لصالح دفع مناخات جديدة تساهم في تحريك الملف الصعب في الشرق الأوسط، وبالتالي فقد التزمت الدول الكبرى شبه الصمت في بدايات العدوان في انتظار نتائج الحسم فيه حتى تتهيأ الظروف للذهاب لمقترحات سلمية أشمل.

٧. من المؤكد أن سير العمليات على الأرض ترك أثراً كبيراً على تحول موقف بعض الدول، سيما بعد المذابح والمساس المهول بالمدنيين وبالأحياء السكنية ما جعل بعض الدول ترفع من وتيرة نقدها لإسرائيل.

يكشف النظر إلى مواقف الدول الكبرى بكثير من الجلاء مستقبل وجهات نظر تلك الدول من الصراع العربي الإسرائيلي، ويضعنا أمام جملة من الحقائق المتعلقة بالتحولات الإقليمية والدولية التي يجب علينا أن نعرف كيف نعالجها حتى نقلل من ضررها على مصالحنا وعلى قضيتنا. سيكون من الصعب النظر في مواقف كل الدول والمؤسسات الدولية في العالم، لذا سيقتصر التحليل على تقديم مواقف كل من الولايات المتحدة وروسيا والهند والصين وتركيا بجانب تقديم المواقف الأوروبية، سواء تلك المتعلقة بكبريات العواصم الأوروبية أو تلك الخاصة بالاتحاد الأوروبي. أيضاً تلقي الورقة نظرة سريعة على مواقف دول أميركا اللاتينية وأفريقيا، قبل أن نقدم جملة من الملاحظات الختامية.

أولاً، الموقف الأميركي

اصطف الموقف الأميركي كالعادة خلف الموقف الإسرائيلي، وكان لسان حاله أن من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها ضد الهجمات الفلسطينية، وأن ما يقوم به الفلسطينيون هو إرهاب بحق المدنيين الإسرائيليين. رغم ذلك فثمة إشارات أميركية تحذر من جراء تدهور الوضع خاصة مع تصاعد استهداف المدنيين. لكن علينا أن نتذكر أن الحرب اندلعت بعد توتر في العلاقات بين تل أبيب وواشنطن عقب رفض إسرائيل للمقترحات التي تقدم بها جون كيري للمفاوضات. إلا أن الموقف الأميركي من العدوان على غزة حكمه عاملان:[1] الموقف

رغبت واشنطن في أن ينتج العدوان على غزة مناخاً سياسياً يمكن استثماره لصالح إعادة طرح مقترحات جون كيري. من هنا كانت جهود كيري في الأسابيع الثلاثة الأولى بعد العدوان التي حاولت تجاوز الدور المصري، بالتعاون مع قطر وتركيا وأوروبا. وفيما كانت تل أبيب تصر على الدور المصري كانت واشنطن تحاول أن تجعل من نتائج الحرب فرصة لإعادة إطلاق المفاوضات، ولكن بعد وقف إطلاق النار.

الأميركي التقليدي الداعم لإسرائيل. [٢] رغبة واشنطن في استثمار ما يجري لصالح الدفع باتجاه تسويات أكبر.

من جهة الموقف الأميركي التقليدي فإن كل ما صدر عن واشنطن شكل امتداداً للدعم الأميركي المطلق لإسرائيل. أكد الرئيس الأميركي باراك أوباما لنتنياهو على حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها رداً على القصف المتواصل بالصواريخ من قبل حماس والمنظمات الإرهابية الأخرى، بكلمات أوباما. وفي اتصال مع نظيره الإسرائيلي أعرب وزير الدفاع الأميركي تشاك هيغل عن تأييده لحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها. وأعرب هيغل عن قلقه من استمرار التصعيد، مؤكداً على أنه «يتوجب على جميع الأطراف بذل كل جهد مستطاع لحماية المدنيين». وأعلنت المتحدثة باسم الخارجية الأميركية جين ساكي تأييد واشنطن الكامل لما أسمته بـ«حق إسرائيل في الدفاع عن النفس»، ضد الهجمات الفلسطينية، وردًا على سؤال عما إذا كان للفلسطينيين نفس الحق، قالت ساكي: هناك فارق كبير بين الهجمات الصاروخية التي تطلقها منظمة إرهابية تتخذ من غزة مقرًا لها، وحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها. أما المتحدث باسم البيت الأبيض جوش إيرنس فقال إنه لا يوجد بلد يقبل أن تطلق الصواريخ علي المدنيين فيه، ونحن ندعم حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها في وجه هذه الهجمات.

من جهة أخرى، فقد رغبت واشنطن في أن ينتج عن هذا العدوان مناخ سياسي يمكن استثماره لصالح إعادة طرح مقترحات جون كيري. من هنا كانت جهود كيري في الأسابيع الثلاثة الأولى بعد العدوان التي حاولت تجاوز الدور المصري، بالتعاون مع قطر وتركيا وأوروبا. وفيما كانت تل أبيب تصر على الدور المصري كانت واشنطن تحاول أن تجعل من نتائج الحرب فرصة لإعادة إطلاق المفاوضات، ولكن بعد وقف إطلاق النار.

وفيما انتقد البعض عدم إصرار إسرائيل على الوساطة الأميركية لمعرفة تل أبيب أن القاهرة هي الوحيدة التي تقدر على ممارسة الضغط على حماس لاعتبارات كثيرة، فإنه تم التحذير أن تهميش واشنطن في عملية التهدئة ليس مفيداً لإسرائيل التي تحتاج دائماً الموقف الأميركي، وهو ما يستدعي محاولة إعادة تمتين العلاقات بعد المساس بها والتآكل الخفيف الذي أصابها منذ فشل جهود كيري في ربيع هذا العام (٢٠١٤) حتى لا تكون العلاقة بين البلدين هي إحدى خسائر إسرائيل في الحرب.[١]

ثانياً، المواقف الاوروبية

كما يقترح العنوان الفرعي السابق فثمة مواقف أوروبية ولا يوجد موقف واحد وموحد كما هو ديدن السياسات الاوروبية. ويمكن بشكل عام الحديث عن مواقف الدول ومواقف الاتحاد.

اما بخصوص مواقف الاتحاد فلقد كانت اكثر جرأة من مواقف دوله الاعضاء ومتقدماً عنها في استمرار لجملة المواقف والسياسات الأوروبية الجماعية التي بدأت تتطور تجاه الصراع منذ إعلان البندقية عام ١٩٨٠ حتى اليوم.[٢] فقد طالب الاتحاد الأوروبي في بيان أصدره رئيس مجلس وزراء الاتحاد هرمان فنا رومبوبي بـ«الوقف الفوري» لحمام الدم الناجم عن العدوان الإسرائيلي على غزة. وقال رومبويي إن «غزة تتعرض لمعاناة غير محتملة منذ أكثر من ثلاثة أسابيع أودت بحياة الكثيرين بينهم العديد من النساء والأطفال. وهذا الأمر يجب أن يتوقف فورا». وأوضح أن الاتحاد الأوروبي يضم صوته لكل الأصوات التي «تدعو الطرفين إلى وقف الأعمال القتالية فورا»، وأضاف أنهم «على استعداد لتسهيل المفاوضات. وطالب القيادتين الفلسطينية والإسرائيلية أن تكون لديهما الشجاعة لوضع حد لهذا.[٣]

تتمثل أبرز مواقف الدول الأعضاء الثماني والعشرين في الاتحاد في تلك المواقف التي صدرت عن قوى الاتحاد الثلاث الكبرى (فرنسا، بريطانيا وألمانيا) والتي اتسمت بتفهم كبير لما قامت به إسرائيل في قطاع غزة مع اعتراض على وقوع الضحايا والمجازر بحق المدنيين. كما كان واضحاً أن دول أوروبا الكبرى تقف بشكل صلب خلف جهود كيري ومقترحاته، بل إن باريس ضمت اللقاء الموسع حول الوضع في غزة، والذي لم تحضره السلطة الفلسطينية، وكان يهدف إلى مناقشة سبل وضع حدٍ للحرب.

كما كان البرلمان الأوروبي قد دعا إلى وضع حد فوري للهجمات الصاروخية على إسرائيل ووقف العمل العسكري ضد قطاع غزة داعياً الاسرائيليين والفلسطينيين إلى استئناف محادثات السلام المباشرة. وأكد على عدم وجود مبرر لتدمير البنية التحتية المدنية واستهداف المدنيين المتعمد، معتبراً هذه الخطوات «جريمة حرب»، ومشددا على أن «كلا من المواطنين الإسرائيليين والفلسطينيين لديهم الحق في العيش في سلام وأمن».

وبعد وقف اطلاق النار، أصدر وزراء خارجية الاتحاد بياناً أكدوا فيه على الدور الكبير الذي يمكن للاتحاد أن يقوم به في إدارة معابر غزة مؤكدة على أن ذلك يشمل ضمان أمن إسرائيل على حدّ تعبير البارونة أشتون مفوضية السياسة الخارجية في الاتحاد. وعرض الاتحاد عودة فريق المراقبة على الحدود في رفح، واستعداده لإرسال فرق أخرى في نقاط حدودية أخرى بشرط تفويض قرار من مجلس الأمن له بذلك. وينظر الاتحاد إلى هذا الدور بوصفه استكمال لمهامه السابقة في التدخل في العملية السلمية. وقال وزراء الخارجية الأوروبيون إنهم مستعدون للتدخل في منع تهريب السلاح والبدء بتدريب الشرطة الفلسطينية ورجال الجمارك الفلسطينيين ليتمكنوا من الانتشار في غزة.

كما طالب الاتحاد برفع الحصار عن غزة حتى تتحسن بشكل جوهري حياة الفلسطينيين هناك. واختتم بيان الاتحاد بالقول «لقد كان الوضع في غزة غير مستقر لسنوات عديدة، وإن العودة للوضع الذي ساد قبل اندلاع الأزمة لم يعد خياراً». وهو ما يعني رغبة الاتحاد في النظر في ترتيبات أوسع لإدارة الوضع والحكم في غزة مثلما هو الحال بالنسبة للمجتمع الدولي.

وتتمثل أبرز مواقف الدول الأعضاء الثماني والعشرين في الاتحاد في تلك المواقف التي صدرت عن قوى الاتحاد الثلاث الكبرى (فرنسا، بريطانيا وألمانيا) والتي اتسمت بتفهم كبير لما قامت به إسرائيل في قطاع غزة مع اعتراض على وقوع الضحايا والمجازر بحق المدنيين.

قذائف العدوان ذات قصف على غزة.

غزة «فوق» النار

كما كان واضحاً أن دول أوروبا الكبرى تقف بشكل صلب خلف جهود كيري ومقترحاته، بل إن باريس ضمت اللقاء الموسع حول الوضع في غزة، والذي لم تحضره السلطة الفلسطينية، وكان يهدف إلى مناقشة سبل وضع حدّ للحرب.

أدانت فرنسا وعلى لسان رئيسها فرنسوا هولاند –في اتصال هاتفي مع نتنياهو– إطلاق الصواريخ على إسرائيل، وأعلن هولند تضامن فرنسا مع إسرائيل في وجه الهجمات الصاروخية، وأن من حق إسرائيل أن تتخذ كل الخطوات في وجه هذه الهجمات، ولكنه شدد أن مصلحة إسرائيل أن لا تتفاقم الأمور. وبعيد يوم من العدوان دعا الناطق باسم الخارجية الفرنسية رومان نادال «الفلسطينيين والإسرائيليين إلى احترام هدنة تم توقيعها بينهما عام ٢٠١٢». موقف هولاند المحذر من تفاقم العنف جراء أي عملية برية أكده وزير خارجيته لوران فابيوس حيث قال :»تشعر فرنسا بقلق بالغ من القرار الاسرائيلي بدء هجوم بري في غزة. إنها تدعو إسرائيل لإظهار أقصى درجات ضبط النفس»، وأدان فابيس المجازر قائلاً أن لا شيء يبرر استمرار العملية والمجازر التي لا تجلب أي شيء آخر إلا المزيد من الضحايا والكراهية. وجد الموقف الفرنسي الداعم لإسرائيل رغم أنه أقل حدة من مواقف كل من بريطانيا وألمانيا صداه في تصوير وزير الداخلية الفرنسي للتظاهرات التي خرجت في مدن فرنسية لدعم غزة على أنها مواقف ضد السامية.

أما الموقف البريطاني فقد ساوى أيضاً في النقد بين إطلاق الصواريخ من غزة والهجمات عليها. وفي أول أيام العدوان بدأ وزير الخارجية البريطاني ولياه هيغ موقفه حول العدوان بإدانة الصواريخ التي يطلقها المسلحون الفلسطينيون على إسرائيل مطالباً حماس والمجموعات الأخرى بوقف إطلاق الصواريخ. قال هيغ «بريطانيا تدعو حماس، والجماعات المسلحة إلى الإيقاف الفوري لإطلاق الصواريخ على المدن الإسرائيلية، وترويع الأبرياء، لأن لهم الحق في العيش بأمن، وسلام، كذلك ندعو الحكومة الإسرائيلية إلى وقف العمليات العسكرية، وإعطاء فرصة للشعب الفلسطيني في غزة كي يعيش في أمن وسلام». ومع تصاعد حجم الضحايا الفلسطينيين صارت لندن تدين استهداف المدنيين وسقوط الضحايا وتطالب إسرائيل بوقف اعتداءاتها على المدنيين.

على خلاف العدوانين السابقين على غزة، لم تتبن موسكو موقفاً حازماً ضد إسرائيل، كما لم تسع للحوار مع حماس ولم تدع قادتها كما كانت تفعل للتباحث معهم. فقد اعتمد الموقف الروسي الجديد في هذا العدوان على انتقاد إطلاق الصواريخ من غزة كما انتقد الهجمات الإسرائيلية على القطاع. وبالتالي تمت المساواة بين الفعل الفلسطيني والفعل الإسرائيلي في تساوق خطر مع المواقف الإسرائيلية التي تجعل من غزة عدواً يتم القتال معه وليس أرضاً محتلة. بل إن وزير الخارجية لافروف استخدم عبارات إسرائيلية وأميركية في الإشارة للفصائل الفلسطينية. ففي حديث له لقناة «روسيا اليوم» قال إن الوقت لم يفت حتى تستجيب حماس و«المجموعات الراديكالية الأخرى» للمبادرة المصرية.

ففي انتقادات غير معتادة هاجم نائب رئيس الوزراء البريطاني نيك كليغ الضربات الجوية التي تشنها إسرائيل على قطاع غزة واعتبرها «غير متناسبة بشكل متعمد» وتصل إلى حدّ «العقاب الجماعي». وقال: «سأطلب من حكومة إسرائيل الآن أن تتوقف، فقد أثبتت وجهة نظرها»، دون أن يستثني احترامه «لحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها». ونتيجة هذه المواقف المنحازة مع إسرائيل، قدمت وزيرة الدولة في الخارجية البريطانية البارونة سعيدة وارسي استقالتها احتجاجاً على ما اسمته الموقف غير المبرر أخلاقياً للحكومة البريطانية تجاه الأحداث في غزة. وقالت وارسي إنه لم يعد بمقدورها الدفاع عن مواقف الحكومة. وقالت إنها تدعم حق إسرائيل في الوجود لكن ما تقوم به إسرائيل من قتل للمدنيين في غزة لا يمكن تبريره مهما كان السبب. [٤]

كان الموقف الألماني أكثر المواقف الاوروبية دفاعاً عن إسرائيل وعن عدوانها على غزة. ففي اتصال هاتفي مع نتنياهو ادانت المستشارة الألمانية «بلا تردد» إطلاق الصواريخ على إسرائيل، وقالت إنه لا يوجد مبرر لهذه الهجمات. أما وزير خارجيتها فرانك شتاينماير فقد دعا إسرائيل، والفلسطينيين إلى الابتعاد عن الصراع العسكري. ولم يحد شتاينماير عن موقف مستشارته، إذ حذر من مخاطر العنف التي تسببها الصواريخ التي تطلق من قطاع غزة ، مؤكداً على حق إسرائيل في حماية مواطنيها من الصواريخ.

حتى إيطاليا تبنت موقفا جعل الإدانة متساوية بين الطرفين، حيث قالت وزيرة الخارجية الإيطالية فيديريكا موغيريني إن التهديد الذي تقوم به حماس ضد أمن إسرائيل عبر الهجمات الصاروخية المستمرة على أهداف مدنية، أمر غير مقبول، كما أن حصيلة الضحايا الفلسطينيين كل يوم ثقيلة ولا تطاق. وقالت إن بلادها بوصفها الرئيس الدوري للاتحاد الأوروبي، على استعداد للتوسط من أجل التوصل إلى وقف إطلاق النار وتسهيل استئناف مفاوضات السلام بين الطرفين. كما أدان وزير خارجية بلجيكا قتل المدنيين جراء سقوط الصواريخ على إسرائيل، ورغم إدانته للرد الإسرائيلي على تلك الصواريخ إلا أنه شدد أنه يتفهم حق إسرائيل في حماية مواطنيها في وجه الإرهاب.

وكانت فرنسا وألمانيا وبريطانيا قد تقدمت بمقترح قرار لمجلس الأمن لوقف الحرب في غزة قبل أيام من وقف إطلاق النار يدعو لوقف إطلاق النار ووضع آليات لعمل المعابر ومراقبة وقف اطلاق النار وحظر بيع أو تزويد قطاع غزة بالسلاح ومواد بالإمكان استخدامها لصنع أسلحة. والامتناع عن تمويل «الإرهاب» والعمل من أجل إحباط هذا التمويل. ويطالب مشروع القرار بإزالة القيود الاقتصادية والإنسانية المفروضة على القطاع من أجل إعادة إعماره وترميم الاقتصاد وتطويره، وفتح كامل للمعابر الحدودية إلى قطاع غزة.[٥] وبالنظر للمقترح السابق فهو يلبي كل المطالب الإسرائيلية بشكل كبير رغم احتجاج إسرائيل عليه.

ثالثاً، الموقف الروسي

لم تتخذ روسيا بدورها موقفاً ينسجم مع مواقفها التقليدية خلال الأزمات في الشرق الاوسط. لقد تطورت العلاقات الروسية الإسرائيلية في السنوات الأخيرة بشكل إيجابي، إلا أن موسكو لم تقدم نفسها يوماً بوصفها حليفاً لتل أبيب في ظل تمسك الأخيرة بحليفها الأهم، غريم موسكو، واشنطن. بيد أن هذا التقارب كان دائماً في صالح إسرائيل وجنت ثماره في العدوان الأخير على غزة، حيث بدا أن موسكو أقرب لتل أبيب منها للفلسطينيين. ثمة

أثر العدوان.

ملاحظات ثلاث يمكن لها أن تفسر التقارب الروسي الإسرائيلي في السنوات الأخيرة.

١. المنافع المتبادلة التي يجنيها الطرفان من تعزيز التعاون في القطاعات الاقتصادية والصناعية والعسكرية.

٢. محاربة روسيا للجماعات الإسلامية وقلقها من تنامي دورها عالمياً ومن امتداداتها شرق الأوسطية. يعتقد بوتين أن أحد مهامه هو القتال ضد الإرهاب.

٣. وجود جالية روسية كبيرة في إسرائيل تزيد عن المليون مهاجر. لقد كان لهؤلاء دور كبير في تعزيز روابط العلاقات بين الطرفين.

وعلى خلاف العدوانين السابقين على غزة، لم تتبن موسكو موقفاً حازماً ضد إسرائيل، كما لم تسع للحوار مع حماس ولم تدع قادتها كما كانت تفعل للتباحث معهم. فقد اعتمد الموقف الروسي الجديد في هذا العدوان على انتقاد إطلاق الصواريخ من غزة كما انتقد الهجمات الإسرائيلية على القطاع. وبالتالي تمت المساواة بين الفعل الفلسطيني والفعل الإسرائيلي في تساوق خطر مع المواقف الإسرائيلية التي تجعل من غزة عدواً يتم القتال معه وليس أرضاً محتلة. بل إن وزير الخارجية لافروف استخدم عبارات إسرائيلية وأميركية في الإشارة للفصائل الفلسطينية. ففي حديث له لقناة «روسيا اليوم» قال إن الوقت لم يفت حتى تستجيب حماس و«المجموعات الراديكالية الأخرى» للمبادرة المصرية.

لقد كان جوهر الموقف الروسي هو المساواة بين الطرفين. انتقد ممثل روسيا في مجلس الأمن قتل المدنيين على يد إسرائيل، كما استنكر إطلاق الصواريخ من غزة. وقال إن روسيا ستوافق على طلب يقدمه الرئيس عباس لوضع غزة تحت الحماية الدولية. وأبلغ بوتين مجموعة من الحاخامات اليهود الذين زاروه أنه يدعم معركة إسرائيل التي تهدف لحماية مواطنيها. لكن بوتين حذر نتنياهو في مكالمة هاتفية من أن التصعيد سيؤدي إلى تدهور الوضع الإنساني، وأصدر رئيس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الروسي ميخائيل مارجيلوف بياناً طالب فيه بوقف التصعيد ولجوء الأطراف إلى التهدئة. «موقفنا ثابت لم يتغير: نريد أن نرى الشعب اليهودي والشعب العربي يعيشون بسلام واتفاق. ونحن نريد التدخل لتشجيع عملية السلام على المستوى الثنائي وفي المنظمات الدولية».

طالب وزير الخارجية سيرجي لافروف بـ» وقف قصف الأراضي الإسرائيلية، وكذلك وقف الضربات الانتقامية على قطاع غزة». وقال لافروف لقناة «روسيا ٢٤» إن بوتين تحدث إلى أوباما ونتنياهو، وأبدى «تفهمنا لقلق إسرائيل حيال أمنها بسبب القصف العشوائي» بصواريخ «يدوية الصنع تسقط على أحياء سكنية وبعض منها سقط على بعد كيلومتر واحد من السفارة الروسية في تل أبيب». وأضاف أن موسكو «تفهم مدى خطورة الأمر وجدّيته بالنسبة للإسرائيليين». ودعمت موسكو المبادرة المصرية بشكل قوي ودعت الأطراف إلى الموافقة عليها. وكما يقول باحثان إسرائيليان فإنه لا يمكن تفسير

الموقف الروسي إلا أنه داعم لإسرائيل حتى لو كان ذا طبيعة حذرة.[٦]

ما الذي حدث حتى تتبني موسكو مثل هذا الموقف الذي يخرجها عن مسار مواقفها التقليدية؟ إلى جانب ما تم ذكره من تطور العلاقات بين البلدين في السنوات الأخيرة، ثمة مجموعة من العوامل متفاوتة في الأهمية يمكن لها أن تساعد في تفسير هذا الموقف.

تكشـــف الأزمة الأوكرانية عن السر الأكبر وراء ذلك. لقد كان لموقف إسرائيل غير المنتقد لموسكو خلال الأزمة الأوكرانية أثر كبير في دفع الأخيرة إلى عدم انتقاد تل أبيب وسياساتها ضد غزة. لقد التزمت إسرائيل الصمت تجاه الأزمة رغم وقوف كل حلفاء تل أبيب في الغرب صفاً واحداً في مواجهة التدخل الروسي، ودعم موسكو للانفصالين شـــرقي البـــلاد. ورغم العقوبـــات الاقتصادية والتوتر السياسي والعسكري فإن تل أبيب لم تنتقد موسكو فيما اعتبر أنه تواطؤ من إسرائيل التي تعمل قتلاً وتشريداً في الفلسطينيين، وبذا لا يمكن لها أن تنتقد سياسات مثيلة يقوم بها غيرها. يبدو أن روسيا أرادت أن ترد الجميل لإســـرائيل من جهة ومن جهة أخرى تعـزز الموقف الإســـرائيلي الحيـادي فـي المواجهة الأوكرانية الروسية.[٧] هذا بجانب المقاربات المجازية التي تجريها موســـكو مع إسرائيل حتى تبرر لنفسها التدخل في أوكرانيا. مثلاً قارن وزير الخارجية لافروف الوضع الانســـاني شرقي أوكرانيا بنظيره في قطاع غزة. «أعتقد أن معاناة ســـكان شرق أوكرانيا لا تقل عن معاناة سكان مدينة غزة الفلسطينية، باستثناء أن إسرائيل تعرضت لقصف من غزة واضطرت للرد، بينما حمل مواطنو شـــرق أوكرانيا الســـلاح للدفاع عن أنفسهم». وعليه فإن ما تقوم به إسرائيل هو ردة فعل للدفاع عن نفسها، كما يفعل سكان شرق أوكرانيا.

الحقيقة الأخرى التي قد تفسر هذا التحول هو ما يقول عنه بعض الخبراء الإسرائيليين أن روسيا تريد أن تعزز صورتها كوسيط غير منحاز.[٨] وهي بالتالي تقوم بانزياحات بطيئة ولكن ثابتة عن مواقفها الكلاسيكية تقدمها بوصفها قوة محايدة في الصراعات الدولية. بالطبع هذا لا يعني تنازل موسكو عن حلفائها في الشرق الأوسط، إذ أنها تتمسك بنظام الأسد كأنها تتمسك بنفسها حتى الآن، لكن يعني هذا تنوع التحالفات، وإذ كان الشيء بالشيء يذكر فإن لدعم موسكو اللامحدود لبشار الأسد ولما يقوم به في سورية دور في «تبريد» ردة الفعل الروسية على المجازر الإسرائيلية.

وتبقى رؤية موســـكو الإقليمية الشـــرق أوسطية محدداً آخر في هـــذا المجال. فتنامي العلاقات المصرية الروســـية في عهد المشـــير السيسي ترك أثراً على موقف موسكو من حماس. موسكو ترى في المشير حليفاً قوياً يمكن الاعتماد عليه خاصة بعد زيارته الأخيرة لها وشرائه للسلاح الروسي منها عند اضطراب علاقات مصر في عهده مع واشـــنطن، وعليه فهي لن تقوم بأي شيء قد يمس هذه العلاقة. القصة قصة محاور كما هي عادة السياسة شرق الأوسطية تحديداً.

ويمكن في هذا السياق ذكر الدور الذي قام به وزير الخارجية الإسرائيلي من أصول روسية ليبرمان في تجسير المواقف وفي التأثير على القيادة الروسية، خاصة أنه يتحدث مع نظيره الروسي وكما مع كل المسؤولين الروس بالروسية، مذكراً بذلك بالمليون روسي الذين يتعرضون للقصف من صواريخ الفلسطينيين.

رابعاً، الموقف الصيني

أحدثت السياسة الخارجية الإسرائيلية اختراقات مهمة في العلاقات مع الصين التي كانت في جوهرها تجارية وفي مجالات بيع السلاح. لقد نجحت إسرائيل في تسويق سلاحها للصين التي تتطلع لشراء السلاح الإسرائيلي المتطور والذي تعتقد أنه مشابه لدرجة متقاربة للسلاح الأميركي والسلاح الغربي عموماً. فإسرائيل ثاني مورد للسلاح إلى الصين. الصين ثاني مصدر لإسرائيل وثالث شريك تجاري لها حيث ارتفع التبادل التجاري بين البلدين من ٥١ مليون عام ١٩٩٢ حين بدأت العلاقات الدبلوماسية بينهما، إلى قرابة ١١ مليار بحلول العام ٢٠١٣.

تدرك الصين أن القيام بمهام القوى العظمى يتطلب التدخل في مناطق النزاعات الساخنة في العالم. لذا فهي تولي الصراع العربي الإسرائيلي أهمية كبرى في سياستها الخارجية. فمع تفجر المفاوضات التي رعاها جون كيري وظهور بوادر أزمة ميدانية وتدهور على الأرض. قام المبعوث الصيني لعملية السلام في الشرق الأوسط وو سيكه بزيارة المنطقة وبحث مستقبل العملية التفاوضية.

ربما كان الموقف الصيني مقارنة بمواقف أعضاء مجلس الأمن الأربعة الآخرين- بما في ذلك روسيا- هو الأقل قرباً من إسرائيل، وليس أكثر قرباً من الفلسطينيين. فرغم كل شيء فإن بكين وعلى خلاف موسكو حافظت على بعض الضوابط في تطوير موقفها من العدوان على غزة. فهي ذكرت في كل مواقفها الاعتبارات الأمنية الإسرائيلية وذكرت الرشقات الصاروخية أيضاً، لكن جوهر المقاربات الصينية كانت على ضرورة أن توقف إسرائيل العدوان. ومع هذا فإن موقف بكين كان أقرب للحياد منه لتبني موقف يدين إسرائيل

إجمالاً، فإن الموقف الصيني خرج أيضاً عن طوع المواقف التقليدية لبكين التي كانت ترى في نفسها متزعمة للمواقف المناهضة لسياسات واشنطن وحلفائها في دعم النضال ضد الاستعمار، وصارت مواقفها أكثر حساسية لمصالحها التجارية والاقتصادية ولتطلعاتها كقوة دولية كبرى، بجانب رغبتها في الحفاظ على تجارة السلاح مع تل أبيب. مع ذلك، حاولت الصين الحفاظ على مقاربة خاصة بها بعيداً عن الجهود الأميركية، حيث ذهبت إلى القاهرة لتعلن تأييدها للجهود المصرية وتقدم تصوراً أشمل يتحدث عن استعادة المفاوضات السياسية بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

كما اعتادت أن تفعل قبل ذلك.[٩] كما أن الجهد الدبلوماسي الصيني الضاغط لوقف العدوان لم يكن كبيراً مقارنة بالجهود السابقة التي بذلتها بكين.

وفور بداية الهجوم الإسرائيلي، أصدرت الخارجية الصينية بياناً في ٩ تموز قالت فيه إن اللجوء للقوة والعنف لن يحل المشاكل بل يراكم الحقد والكراهية. وحثت الأطراف جميعهاً لوقف إطلاق نار فوري والانحياز لخيار السلام والعودة للمفاوضات.

وخلال لقائه بالقيادة الإسرائيلية حيث المبعوث الصيني الخاص سيكه إسرائيل على وقف إطلاق النار، كما تحدث أيضاً عن ضرورة وقف إطلاق الصواريخ على إسرائيل. وقال خلال ذلك «ندين كافة العمليات العسكرية التي تستهدف المدنيين، وندعم كل الجهود الرامية لوقف إطلاق النار، وتجنب وقوع المزيد من القتلى والجرحى».[١٠] واعتبر سيكه إن الإفراط في استخدام القوة من جانب إسرائيل لن يحل المشاكل، مع تأكيده على تفهم الاعتبارات الأمنية الإسرائيلية.

وبعيد زيارته للقاهرة في ٢١ آب دعا وزير الخارجية الصيني وانغ يي في مؤتمر صحافي مشترك مع نظيره المصري سامح شكري إلى وقف العمليات العسكرية، وقال «يجب على إسرائيل وقف عملياتها العسكرية البرية والجوية في قطاع غزة لتفادي سقوط المزيد من المدنيين ورفع الحصار أيضا عن القطاع والإفراج عن الأسرى الفلسطينيين». كما طرح الوزير الصيني مبادرة من خمس نقاط، لوقف إطلاق النار بين الفصائل الفلسطينية وإسرائيل، شملت الدعوة لاستئناف مفاوضات السلام بين الجانبين. وتشمل[١١]:

١. الوقف الفوري لإطلاق النار من الجانبين خاصة القصف الجوي والعمليات البرية والصواريخ.
٢. تدعم الصين مبادرة مصر لوقف إطلاق النار وتدعو الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني إلى العمل لإيجاد حل يحقق الأمل المشترك من خلال المفاوضات. وتطالب الصين إسرائيل أن ترفع الحصار عن قطاع غزة وتفرج عن المعتقلين.
٣. وترى المبادرة أن جذور الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين تعود إلى حقيقة بقاء القضية الفلسطينية عالقة دون حل، وفى هذا الصدد تدعم الصين حق فلسطين في إقامة دولة مستقلة، وتدعو الطرفين إلى سرعة استئناف مفاوضات السلام.
٤. يتحمل مجلس الأمن الدولي المسؤولية عن حل الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، وعلى المجتمع الدولي التوصل إلى توافق والتعاون حتى يتم تشكيل قوة مشتركة تدفع لاستئناف التفاوض بين الجانبين.
٥. الالتفات للوضع الإنساني المتدهور في فلسطين خاصة غزة.

إجمالاً، فإن الموقف الصيني خرج أيضاً عن طوع المواقف التقليدية لبكين التي كانت ترى في نفسها متزعمة للمواقف المناهضة لسياسات واشنطن وحلفائها في دعم النضال ضد الاستعمار، وصارت مواقفها أكثر حساسية لمصالحها التجارية والاقتصادية ولتطلعاتها كقوة دولية كبرى، بجانب رغبتها في الحفاظ على تجارة السلاح مع تل أبيب. مع ذلك، حاولت الصين الحفاظ على مقاربة خاصة بها بعيداً عن الجهود الأميركية، حيث ذهبت إلى القاهرة لتعلن تأييدها للجهود المصرية وتقدم تصوراً أشمل يتحدث عن استعادة المفاوضات السياسية بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

خامساً، الموقف الهندي

شهدت العلاقات الهندية مع إسرائيل تحولاً كبيراً في العقدين الماضيين جعلت من تل ابيب شريكة أساسية للهند في الكثير من المجالات. الهند أكبر مستورد للسلاح الإسرائيلي وفاقت تجارة

يمكن اعتبار الموقف الهندي غير المنتقد لإسرائيل في هذا العدوان العلامة الفارقة الدالة على حميمية العلاقة ومستواها المتقدم بين تل أبيب ودلهي. لقد بدت دلهي كأنها تقف في مكان وسط بين قوتين تتصارعان متنازلة بذلك عن موقفها الكلاسيكي في الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني وإدانة إسرائيل واحتلالها لفلسطين. قال المتحدث باسم الخارجية الهندية إن «الهند قلقلة بشكل كبير من أن التدهور نحو العنف بين إسرائيل وفلسطين خصوصاً الهجمات الجوية العنيفة، والاستفزاز الناجم عن استهداف المدنيين في الجانبين». ودعا الطرفين إلى ضبط النفس[11].

السلاح بين البلدين خلال السنوات العشر الأخيرة العشرة مليارات دولار. وتشتري الهند بمليار ونصف المليار من مجمل المليارات السبعة التي تجنيها إسرائيل مقابل تجارة السلاح في العام ٢٠١٤. فإسرائيل مزود هام للتكنولوجيا المتقدمة التي تحتاجها الصناعات العسكرية الهندية. وإسرائيل مركز تتسوق فيه الشركات الهندية للبحث عن التطورات في قطاع التكنولوجيا التي يصعب أن تجدها في الأسواق الغربية أو تلك التي لا تصلها. وهذا يحمي الهند من وضع كل مشاريعها الصناعية العسكرية في سلة واحدة بل ينوعها. كما كانت إسرائيل واحدة من الدول القليلة التي لم تنتقد البرنامج النووي الهندي عام ١٩٩٨.[12]

ويمكن تفسير هذا التقارب بمجموعة من الدوافع التي يمكن اختصارها في ثلاثة. (١) حاجة الهند للتكنولوجيا العسكرية الهندية. (٢) ما تطلق عليه الهند بخطر الجماعات الإرهابية الإسلامية. لقد دأبت تل أبيب على تقديم هذا الخطر بوصفه خطراً مشتركاً. (٣) تطلع الهند لدور إقليمي ودولي يرتبط بالقوى الكبرى خاصة واشنطن، وبذلك فإن علاقة متوازنة مع تل أبيب تساعد كثيراً في هذا المضمار.

يمكن اعتبار الموقف الهندي غير المنتقد لإسرائيل في هذا العدوان العلامة الفارقة الدالة على حميمية العلاقة ومستواها المتقدم بين تل أبيب ودلهي. لقد بدت دلهي كأنها تقف في مكان وسط بين قوتين تتصارعان متنازلة بذلك عن موقفها الكلاسيكي في الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني وإدانة إسرائيل واحتلالها لفلسطين. قال المتحدث باسم الخارجية الهندية إن «الهند قلقلة بشكل كبير من أن التدهور نحو العنف بين إسرائيل وفلسطين خصوصاً الهجمات الجوية العنيفة، والاستفزاز الناجم عن استهداف المدنيين في الجانبين». ودعا الطرفين إلى ضبط النفس. فيما قالت وزيرة الخارجية شوشما ساوراج في استجواب للبرلمان عن موقف الحكومة من الأحداث في غزة «نحن ندعم القضية الفلسطينية فيما نحافظ على علاقاتنا الجيدة مع إسرائيل، كما ركز الخطاب الهندي على نقد استخدام القوة المفرطة وعلى إطلاق الصواريخ من غزة.

ويمكن إضافة تطور جديد للدوافع الثلاثة التي تم ذكرها قبل قليل ساهم في التحول الذي طرأ على الموقف الهندي ويتمثل بصعود حزب بهاراتيا جاناتا اليميني للحكم بعد فوزه في الانتخابات في شهر أيار الماضي على حزب الشعب. لقد وقف حزب بهاراتيا جاناتا الحاكم في مكان أقرب لتل أبيب منه للفلسطينيين. بل إن بعض قادة الحزب يتبنون فكرة أن لإسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها كضحية للإرهاب.[13] وكما يقول كابير تانيا، فإن وجهة النظر هذه لا يتم النظر إليها بوصفها أمرا غير طبيعي آخذين بعين الاعتبار أنهم ينظرون للهند بوصفها ضحية الإرهاب الإسلامي الذي ترعاه تنظيمات عابرة للحدود.[14] فرئيس الوزراء ناريندرا مودي صديق مقرب لإسرائيل، وكان خلال توليه الحكم في ولاية كجرات قد قاد مؤتمرات عديدة لتطوير العلاقة مع إسرائيل، وأقام مشاريع لصالح الولاية مع شركات إسرائيلية تقدر بقرابة عشرة مليارات دولارات.[15] كما أن وزيرة خارجيته الجديدة سوشما سواراج واحدة من أفضل أصدقاء إسرائيل في الهند. فهي ترأست ولمدة أربع سنوات- من ٢٠٠٦ حتى ٢٠٠٩- لجنة الصداقة الإسرائيلية الهندية في البرلمان الهندي. وخلال زيارة لها لتل أبيب عام ٢٠٠٨ دعت إسرائيل بـ«الشريك الذي يمكن الاعتماد عليه».

رغم ذاك، صوتت الهند لصالح قرار مجلس حقوق الإنسان ضد إسرائيل، فيما اعتبر التزاما من الهند بقضايا حقوق الإنسان، وليس انتقاصاً من سياستها تجاه إسرائيل[16]، وعملاً بمحاولة نيودلهي تحت قيادة اليمين الجديد تقديم نفسها كطرف متوازن في العلاقات الدولية. يرى راجيتي جوبتا عضو المجلس الاستشاري للأمن القومي السابق

ماكينة الموت تقصف غزة.

أن غايات السياسة الخارجية الهندية هي دفع مصالح الهند القومية والأمن القومي والرخاء المجتمعي في الهند. وتحقيق هذا يتطلب عدم اتخاذ أي موقف من أي جهة حتى لا تتأثر مصالح الهند، حيث لا مكان للعواطف في هذه الحسابات. ويعتقد جوبتا إن مصالح الهند مع الدول العربية لن تتأثر من عدم اتخاذها لموقف صريح في نقد إسرائيل، لأن موقف الدول العربية مع استثناءات قليلة ليست بالبعيدة عن موقف الهند وتحديداً من حماس. [١٧]

لا يعكس هذا موقف الخارجية الهندية التاريخي. البعض رأي هذا الموقف الباهت جزء من محاولة الهند تقديم نفسها بوصفها قوة دولية وإقليمية. حيث قالت صحيفة «ذا هنيدو» الصادرة بالإنجليزية إن مواقف الهند تعكس طموحها الكوني ورغبتها في العضوية الدائمة في مجلس الأمن والعلاقات المتنامية بقوة بينها وبين تل أبيب في السنوات الأخيرة. ويتساءل سانجيا كومار: هل نستطيع أن نطالب العالم بمكانة صحيحة لنا فيه إذا تجاوزنا تاريخنا؟ البروفسور أك باشا عدد لـ «الجزيرة» ثلاثة أسباب وراء سياسات حزب بهاراتيا جاناتا الحاكم تتمثل في[١٨]

١. التقارب الأيديولوجي اليميني بين الحزب وإسرائيل.

٢. تطلعات الطرفين لمحاربة التنظيمات الإرهابية.

٣. قناعة الحزب بأن العرب ليس لديهم الكثير ليقدموه للهند.

تعكس ثلاث ملاحظات هذا التحول الخطر في الموقف الهندي:

أولاً، الاحتجاجات الشعبية الواسعة ضد موقف الحكومة، إذ خرجت الفعاليات الجماهيرية منددة بموقف الحكومة الصامت من العدوان، حيث قالت كافيتا كريشنانا سكرتيرة الجمعية التقدمية النسوية في كل الهند ان «القضية الفلسطينية ليست قضية الشعب الفلسطيني بل هي أيضاً قضية الروح الهندية التي تتشارك معها في التاريخ المناهض للكولونيالية، وكانت زعيمة العالم الثالث».[١٩] كما شهدت العاصمة الهندية مظاهرات طلابية منددة بالعدوان على غزة إلا أن الشرطة الهندية منعت المتظاهرين من الوصول إلى مقر السفارة الإسرائيلية وقمعتهم بالقوة وأصيب عدد من المتظاهرين.

ثانياً، طريقة تغطية الإعلام الهندي للعدوان تعكس تحولاً في مواقف الإعلام يكشف عن رغبات سياسية مبطنة. يقول سوجاتا أشوارا شيما أستاذ العلوم السياسية في جامعة الأمة الإسلامية بنيودلهي إن الإعلام وضع القفازات في الأكف والجراب في القدم تماشياً مع مواقف وزارة الخارجية بعدم تسليط الضوء على قضية تثير قطاعات واسعة من المجتمع الهندي». ويقول سانجيا كومار أن القضية الفلسطينية وضعت في الخلفية في الوعي الهندي بسبب قلة تغطية الإعلام الهندي للأحداث وربما يعكس الإعلام قلة اهتمام الحكومة في نيودلهي.[٢٠]

ثالثاً، في حدث غير مسبوق في دولة تزعمت النضال ضد

أما الموقف التركي فقد عكس سياسات حزب العدالة والتنمية التي أسس لها أردوغان منذ فوز الحزب في الحكم وتقريره لهوية سياسات تركيا الخارجية. فتركيا بدت مدافعة بشكل واضح وجلي عن المطالب الفلسطينية ومتبنية لها ومستعدة للمساعدة في تحقيقها. بل إن الحديث دار عن مبادرة تركية بالتعاون مع قطر مقابل المبادرة المصرية. لا بد في هذا السياق من استذكار الخلاف المصري التركي وتأثيره على فرص التدخل التركي في حل الصراع، فتركيا تريد أن تتدخل كبديل للقاهرة التي لا ترى بدورها أي دور لأنقرة في موضوع في صلب اهتمامات الأمن القومي المصري.

الكولونيالية خرجت تظاهرات في الهند تؤيد إسرائيل في عدوانها على غزة. ففي تظاهرة نادرة خرج ٢٠ ألف هندي مؤيدين لعدوان إسرائيل في مدينة كالكتا في ١٦ آب، فيما وصفه أحد منظمي التظاهرة بأنه «المصير المشترك للدم الهندي والإسرائيلي». [٢١]

سادساً، الموقف التركي

أما الموقف التركي فقد عكس سياسات حزب العدالة والتنمية التي أسس لها أردوغان منذ فوز الحزب في الحكم وتقريره لهوية سياسات تركيا الخارجية. فتركيا بدت مدافعة بشكل واضح وجلي عن المطالب الفلسطينية ومتبنية لها ومستعدة للمساعدة في تحقيقها. بل إن الحديث دار عن مبادرة تركية بالتعاون مع قطر مقابل المبادرة المصرية. لا بد في هذا السياق من استذكار الخلاف المصري التركي وتأثيره على فرص التدخل التركي في حلّ الصراع، فتركيا تريد أن تتدخل كبديل للقاهرة التي لا ترى بدورها أي دور لأنقرة في موضوع في صلب اهتمامات الأمن القومي المصري. وعليه فقد شجعت أنقرة المبادرة القطرية على حساب المبادرة المصرية وشجعت لقاء باريس وحضرته، وقدمت نفسها متحدثة بالمطالب الفلسطينية.

الأمر الآخر الذي لا بد من الالتفات له، هو أن خطابات أردوغان النارية ضد الحرب على غزة هي في جزء منها جاءت ضمن النسق العام للانتخابات التركية التي فاز فيها كأول رئيس تركي منتخب مباشرة. ففي خطاب أمام مؤيديه في مدينة طوقاط قال رجب طيب أردوغان إن الشعب التركي «لا يمكن أن يغلق على نفسه الأبواب، ولا يهتم بالأمور الخارجية، ولا يمكن أن يدير ظهره لغزة، بلاد الشهداء والمظلومين، التي يقصفها الجيش الإسرائيلي يومياً». بل إن أردوغان وصف الأهداف التي تسعى إسرائيل لتحقيقها من وراء عدوانها على غزة بأنها نفس الأهداف التي حاول هتلر تحقيقها والمتمثلة في إقامة جنس مسيطر. وهو التصريح الذي اتهم نتنياهو من ورائه أردوغان «بمعاداة السامية»، وانتقدته واشنطن بقسوة.

رغم ذلك، حافظت العلاقة بين البلدين –رغم اهتزازها – على مستويات معقولة من الثبات. مثلاً كشفت صحيفة «ايدينليك» التركية عن أن الطائرات الإسرائيلية التي تقصف مدينة غزة تتزود بالقود التركي الذي يتم نقله عبر مينائي مرسين ودورتيول التركيين إلى ميناء حيفا. [٢٢]

سابعاً، المواقف الأفريقية واللاتينية

ربما ظهرت الممانعة الأقوى، وردة الفعل الأشد على العدوان الإسرائيلي على غزة في عواصم أميركا الجنوبية، فلم يقتصر الأمر على المظاهرات الغاضبة والتصريحات النارية، بل إنها شملت إجراءات دبلوماسية وصلت سحب السفراء. وكان الرد الأبرز من كبرى دول القارة وأهمها البرازيل التي استدعت سفيرها لدى تل أبيب، واستخدم الرئيس البرازيلي ديلما روسيف عبارات قاسية في وصف جرائم إسرائيل. واعتبرت الحكومة البرازيلية ما يحدث خطراً وله تبعات على الاستقرار والوضع الإنساني في المنطقة. بوليفيا التي قطعت علاقاتها مع إسرائيل عقب عدوان عام ٢٠٠٨–٢٠٠٩ وصفت إسرائيل على لسان رئيسها بدولة إرهابية. وقام الرئيس البوليفي بإلغاء اتفاق العام ١٩٧٢ الموقع بين البلدين بخصوص إعفاء الإسرائيليين من الحصول على تأشيرة لدخول بوليفيا. كما سحبت البيرو سفيرها لدى تل أبيب وأدانت بشدة ما يتعرض له قطاع غزة، وقالت إن هذا الاعتداء هو اعتداء على أرض تم الاعتراف بها كدولة فلسطين. الإكوادور أدانت استخدام إسرائيل للقوة المفرطة ولقتل المدنيين، فيما طالبت السلفادور بوقف فوري للعدوان. واتهمت كوبا

إسرائيل باستخدام تفوقها العسكري والتكنولوجي للقيام بعقوبات جماعية. أما حكومة التشيلي فقالت إن خطف المستوطنين الثلاثة لا يمكن أن يكون مبرراً لكل هذا العنف، فيما وصفت بوليفيا ما يحدث بالتصفية التي يجب وقفها. وفي غضب شديد أدان الرئيس النيكراجوي دانيال أورتيجا العدوان الإسرائيلي وأعرب عن تضامنه مع الشعب الفلسطيني في وجه عمليات التطهير التي تمارسها إسرائيل. وقال: مرة بعد مرة تواصل إسرائيل عمليات التطهير ضد الفلسطينيين.

أفريقياً، انتقدت الدول الافريقية بشدة العدوان الإسرائيلي وسقوط الضحايا من الفلسطينيين. وبالطبع كانت أكثر المواقف وأهمها تلك التي صدرت من كبرى الدول الأفريقية جنوب أفريقيا. حيث وصف جيس ديورات نائب رئيس الحزب الوطني الأفريقي الحاكم في جنوب أفريقيا ما تقوم به إسرائيل بأنها تحول المناطق الفلسطينية إلى مخيمات موت، التصريح الذي أغضب المنظمات اليهودية في بلاده. رغم ذلك فإن تصريح الحكومة الجنوب أفريقية أشار إلى المدنيين الإسرائيليين الذين يسقطون بسبب الهجمات الفلسطينية. كما أدانت جنوب أفريقيا ما قالت عنه لجوء إسرائيل للعقوبات الجماعية. وبعد طلب تقدمت به منظمات حقوقية جنوب أفريقية ودعوى قضائية فقد قررت جوهانسبرغ محاكمة كل جنوب أفريقي يشارك في العدوان على غزة في إشارة إلى الجنود الإسرائيليين الذين يحملون جنسيتها. وللمواقف التاريخية الجنوب أفريقية ونضالها ضد الكولونيالية دور مهم في بلورة هذه المواقف والحفاظ عليها. من جانبها أعلنت حكومة مالي يوم ٢٤ تموز يوماً للحداد على الضحايا الفلسطينيين.

ملاحظات ختامية

١. على الفلسطينيين أن ينتهبوا أن ثمة انزياحاً باتجاه اللامبالاة في التعاطي الدولي مع القضية الفلسطينية الأمر الذي ساعدت عليه حالة اللامبالاة العربية وهبوط القضية الفلسطينية في سلم اولويات العرب والإقليم المضطرب، وهو ما يتطلب حراكاً دبلوماسياً كبيراً من أجل إعطاء القضية دفعة جديدة. لا يتطلب هذا حل القضية على حساب الحقوق ولكن المزيد من النضال الدبلوماسي من أجل إعادة تجميع الحلفاء والأصدقاء والداعمين وجسر الهوة بين مواقف الدول ومواطنيها.

٢. يرتبط بالسابق أن المجتمع الدولي ملّ من دفع أموال لتطوير البنية التحتية في القطاع ثم يضطر إلى دفعها مرة أخرى بعد أن تدمرها إسرائيل، لذا فإن الدول المانحة لن تساهم هذه المرة في عملية لا تكون دائمة ومستدامة. لن يستمر الاتحاد الأوروبي أكبر الممولين للسلطة الفلسطينية في دفع أموال لدائرة مستمرة من العنف. «كل شيء نقوم بالمساعدة في بنائه سيتم تدميره مرة أخرى. نريد تغيراً جوهريا في الوضع على الأرض حتى لا نظل نعيد ما تمت إعادته في السابق» كما قال دبلوماسي أوروبي.[٢٣]

٣. من الملاحظ أن ثمة تطورات مقلقة في مواقف بعض الدول خصوصاً الهند وروسيا وإلى درجة أقل الصين حتى باتت هذه الدول في الكثير من المواقف أقرب لإسرائيل منها للفلسطينيين، وهو أمر يجب أن يدق ناقوس الخطر، إذ إن المصالح لا الأخلاق والمواقف التاريخية هي التي تحكم العلاقات. وإن دل هذا على شيء فهو يعكس حالة الضعف التي تعانيها الدبلوماسية العربية والفلسطينية بالطبع ليست استثناءً، وضعف الخطاب العربي الموجه لتلك الدول، وسوء توظيف الطاقات والعلاقات والمصالح الاقتصادية والجيواستراتيجية مع تلك البلدان.

٤. ورغم ما أبدته الدول الكبرى من تفهم للموقف الإسرائيلي في الكثير من كبريات العواصم الأوروبية والغربية إلا أن إسرائيل قد دفعت ثمناً باهظاً على مستوى الرأي العام وفي تآكل الدعم لمواقفها في المفاوضات مع الفلسطينيين.[٢٤] حيث أن العالم بات أكثر تفهماً للحقيقة الصغيرة التي تقول إن المشكلة في الاحتلال وفي ضرورة إنهائه. ويبدو أن الدعم الشعبي الكبير الذي حظيت به المطالب الفلسطينية في التظاهرات الكبيرة التي جابت عواصم أوروبا والمدن الأميركية يعكس هذا التحول في الوعي العالمي.

٥. ركز كثير من النقاش الدولي على مخرجات الحرب ووضعية غزة بعد الحرب وهو ما يعني أن ثمة الكثير من اللوم يقع على الفلسطينيين بسبب الانقسام الذي لم ينته رغم توقيع اتفاق المصالحة وتشكيل حكومة الوفاق الوطني. إن ذات الملل الذي هيمن على رغبة المجتمع الدولي في التدخل، حكم الكثير من مواقفه تجاه العدوان، حيث أن المجتمع الدولي يريد إجابات حول مستقبل غزة وليس حول الحرب. لقد عبر عن هذا الكثير من قادة المجتمع الدولي حين قالوا

إن حالة الحكم في غزة هي الأساس، بمعنى من سيحكم غزة بعد الحرب.

٦. لم يكن ثمة حضور قوي للمستوى الحقوقي الإنساني في خطاب المجتمع الدولي. صحيح أن مجلس حقوق الإنسان أقر تشكيل لجنة تحقيق، غير أن الخطاب الحقوقي بخصوص جرائم إسرائيل لم يكن بمستوى تلك الجرائم. وعلى عكس العدوانين السابقين فإن لغة المجتمع الدولي كانت عامة ولم تركز على قضايا حقوقية معينة، ولم تكن ردة الفعل تجاه الانتهاكات ذات أثر في تقرير مواقف الدول.

٧. واحدة من أهم سمات المواقف الدولية في هذا العدوان هو الفصل الكامل وربما التمايز بين مواقف الدول الرسمية والمواقف الشعبية والتأثير الضعيف الذي تركته المواقف الشعبية على المواقف الرسمية. فمثلاً كان ملفتاً المسيرات الحاشدة التي خرجت في كبريات المدن الأميركية والمسيرة الأكبر في لندن التي ضمت قرابة ١٥٠ ألف متظاهر، بجانب المسيرات في كندا وفرنسا وغيرها. بجانب ذلك اشتداد عود حركات المقاطعة لإسرائيل سواء الاقتصادية أو الأكاديمية.

هوامش

1 Oded Eran , Another Casualty of the Third Gaza War: US–Israel Relations, I NSS Insight No. 600, September 1, 2014

2 للمزيد حول ذلك انظر، عاطف أبو سيف، الاتحاد الاوروبي وإسرائيل: الشراكة الناعمة، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، (مدار)، رام الله، ٢٠١١.

3 انظر بيانات الاتحاد على الموقع الرسمي للاتحاد او على موقع بعثتي الاتحاد لفلسطين أو إسرائيل.

4 http://www.alarab.co.uk/?id=29643

5 http://www.wattan.tv/ar/news/102602.html

6 Zvi Magen and Olena Bagno–Moldavsky, Ukraine and Operation Protective Edge: Two Sides to Russia's Foreign Policy Coin, INSS Insight No. 589, August 14, 2014

7 ibid

8 ibid

9 Nigel Wilson, «Where the Brics Stand on Israel›s Gaza Offensive», 23 July, 2014 http://www.ibtimes.co.uk/where–brics–stand–israels–gaza–offensive–1458010

10 http://www.chinainarabic.org/?p=17429

11 http://www.almasryalyoum.com/news/details/494861

12 يقدم محمد فايز فرحات تحليلاً مطولاً لتطور العلاقات فية : محمد فايز فرحات، «» في عاطف أبوسيف، علاقات إسرائيل الدولية. السياقات والادوات الاختراقات والاخفاقات، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) رام الله، ٢٠١٤، الصفحات ٣٠٥–٣٢٦.

13 Kabir Taneja, «The Gaza Crisis and Indian Discourse», August 05, 2014 http://thediplomat.com/2014/08/the–gaza–crisis–and–indian–discourse/

14 ibid

15 «Why India Is Silent On Gaza Conflict», 14/8/2014, http://www.mapsofindia.com/my–india/india/why–india–is–silent–on–gaza–conflict

16 http://rt.com/op–edge/177024–india–gaza–war–netanyahu–materialism/

17 Ranjit Gupta, « India and the Conflict in Gaza «, The Institute for peace and conflict studies, 4 August 2014, http://www.ipcs.org/article/india/india–and–the–conflict–in–gaza–4591.html

18 Baba Umar, «India›s ‹balancing act› on Gaza crisis», Al Jazeera, 27 Jul 2014 http://www.aljazeera.com/indepth/features/2014/07/india–israel–gaza–crisis–palestine–hamas–bjp–2014727121259998483.html

19 Sanjay Kumar, «Why Is India Silent on the Israeli Operation in Gaza?», July 18, 2014 http://thediplomat.com/2014/07/why–is–india–silent–on–the–israeli–operation–in–gaza/

20 ibid

21 http://www.algemeiner.com/2014/08/17/largest–pro–israel–rally–of–gaza–war–held–in–india–20000–in–attendance/

22 http://www.wattan.tv/ar/news/98678.html

23 Hugh Naylor, «What the world builds, Israel bombs», The National, 9/8/2014. http://www.thenational.ae/world/palestinian–territories/what–the–world–builds–israel–bombs#ixzz3CQSeOC73

24 Gilead Sher , Einav Yogev, Image vs. Reality: The Delegitimization of Israel in the Wake of Operation Protective Edge, INSS Insight No. 593, August 20, 2014.